

قصص قصار

الدكتور

عبد القادر حسين

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠٠٧/٢٦١٧٧

الزهراء كمبيو سنتر
طباعة - نشر - إعلان
القاهرة – ت : ٢٢٦٢٧٣٥٣
٠١٠/٤٠٣٧٧٤٣

الفهـرس

إهــداء

هذه القصص مستوحاة من الواقع

أهديها إلــى الـذين يحبــون

التســلق علــى أكتــاف الآخرين

البلهـــاء



شبابها، أنوثتها الطاغية، رغبتها الجامحة، تكاتف عليها كل ذلك ووجه تصرفاتها.

شـوقي المـريض يشـعر بتقصـير في أداء واجبـه، إذا اقتربت منه راضية تربت على كتفه، صدرت منه أنات خافتة، تتمدد الدموع بمآقيه، ينهنه بنشيج متقطع.

- شد حيلك يا شوقي، ربنا معك، يعيد لك صحتك، يشفيك من مرضك، وتقف على قدميك، وتعود إلى عملك من جديد، تملأ الدنيا علينا نورا، وتدخل على أولادك البهجة.

البنت المعوقة وأخوها الأكبر يحيطان بالأب ابتغاء تسليته والتخفيف عنه، قلبه يخفق تحت وطأة هذه المشاعر الجياشة، كمشاعر أم نحو ابنها الرضيع، تخاف عليه، تحوطه برعايتها، كأنه ليس في العالم سوى هذا الأب وأولاده، وما بعدهما صحراء قاحلة.

شـوقي ينـاجي ربـه أن يشـفيه حتـى يسـتطيع أن يساعدهما ويعينهما على صلب عودهما .

* * *

أبوها الأسطى شوقي يقربها منه، يحضنها، يقبلها، يدفئها في صدره الحنون، يعاملها برفق شديد، أكثر مما يعامل به أخاها أحمد، الذي أصبح على أعتاب الجامعة.

الأسطى شوقي ألمت به وعكة صحية، قواه تخور، شكة في صدره، تحامل على نفسه، يخفى ألمه، لم يصرح لزوجه بما يشعر، تفاقم الألم، نار في صدره، لم يعد يتحمله، نقل إلى مستشفى الصدر بالقرب من مدافن الأتراك، شخص الأطباء حالته، مرض صدري منذ فترة، يفتقر إلى علاج طويل، وتكاليف باهظة، يبقى في المستشفى حتى يسترد صحته، يحتاج للراحة التامة، والغذاء المفيد، والأدوية المكثفة.

راضية زوجة الأسطى شوقي لا تتخلى عن رعاية زوجها منذ أن ولج المصحة، بل قبل دخوله المستشفى، العامان اللذان قضاهما هناك، وبعد نزوحه إلى البيت، فترة تربو على خمس سنوات، زوجها لم يقربها، لم يمس جسدها المتعطش للارتواء، غرائزها طغت على حواسها، فورة

الأم راضية في مقتبل العمر، جذابة، مكتملة الأنوثة، لا أحد يشعر بأنوثتها، زوجها لا يقربها رغما عنه، مرضه يقف حائلا بينه وبين إشباع غريزتها، ينام وحيدا على فراش الزوجية، وراضية وأولادها ينامون على سرير في غرفة مجاورة، حتى لا يلتقطوا أنفاسه، فيصيبهم الدرن مثل ما أصابه، يخشيان على ولديهما، يجنبانهما الوقوع في المحظور.

تتذكر راضية الأيام الأوائل من عرسها، حين كان شوقي يضمها إلى صدره الدافئ، يمسح على ثدييها الناعمتين كندى الخريف، يغيبان في عناق حتى يطلع الصباح، وتفرش الشمس ضوءها فتوقظ النيام، تتذكر هذه الأيام التي ولت بلا عودة، صارت موحشة كأيام الغربة، اليدان الحانيتان صارتا ترتعشان حين تمسك بكوب الماء، الصدر الدافئ أصبح يتمزق في ظلام الليل، ويئن في ضوء النهار، دائم السعال، لا يهدأ حتى يعاوده مرة أخرى، الأم قلبها يخفق، صدرها يتمزق خوفا على ابنيها كما

يتمزق صدر أبيهم من العلة التي تشبثت به، لا يجد مفرا من التعامل مع علته.

* * *

اختفت الأم راضية من البيت، تفتش عنها صابرين - البنت المعوقة - في أنحاء المنزل، في الشرفة، غرفة المسافرين، المكان الذي يتمدد فيه أبوها على سرير أشبه بالتابوت، ليس لها أثر، لا صوت ولا ظل، خالاتها البنات وأزواجهم يبحثون عنها في الأماكن القريبة والبعيدة دون جدوى، سألوا أقاربهم في الريف، لم يعثروا على أثر، ذهبوا إلى أقسام الشرطة والمستشفيات ربما وقع لها حادث، يبحثون عنها دون مجيب، فقدوا الأمل في عودتها، ربما تكون قد فرت من المنزل، لم تعد إليه، طار لبهم، استبعدوا هذا الهاجس، لم يستمر ذلك طويلا، غشيهم النسيان بعد فترة كفوا عن البحث عنها والسؤال عليها.

مر على اختفائها عدة شهور، طواها النسيان، لم يعد يتذكرها أحد سوى صابرين - البنت المعوقة - دائما تذكر أمها، اسمها يتردد على لسانها من وقت لآخر.

* * *

تململت صابرين في فراشها، جفاها النوم، غادرت سريرها، دفعت الباب وهبطت في هذا الوقت المبكر، الشمس لم تطلع بعد، ما زال الظلام يلف الكون، كان الوقت فجرا، الناس يتلذذون باستغراقهم في النوم، نزلت على الدرج تتنسم ريح الصباح، باب الدور الأول يفتح في هدوء وحذر، شبح يمسك لفافة بين يديه، يسعى لوضعها في صندوق القمامة، التقت صابرين بأمها وجها لوجه، شهقت لم تصدق بصرها، كذبت حدسها، ارتمى كل منهما في حضن الآخر، ضمت الأم ابنتها في صدرها، تهطل عينيها بدموع الفراق والحنان، تقبل ابنتها في شعرها، وجهها، كتفيها، كل مكان تصل إليه شفتاها، صابرين المعوقة تبادل أمها اللهفة، تتشبث بها، صوتها يعلو

كأنه صياح: حبيبتي ماما، أين كنت متغيبة؟ تهربين مني! لا أراك ولا أسمع عنك شيئا، يقول أبي وأخي أنك سافرت، طالت غيبتك كثيرا، أراك اليوم صدفة، لم أتوقع ذلك، ولم تخبرينا عن مجيئك، كنت في غيبتك طفلة تاهت عن أمها في سوق يعج بالبشر، ثم وجدت طريقها إلى أمها.

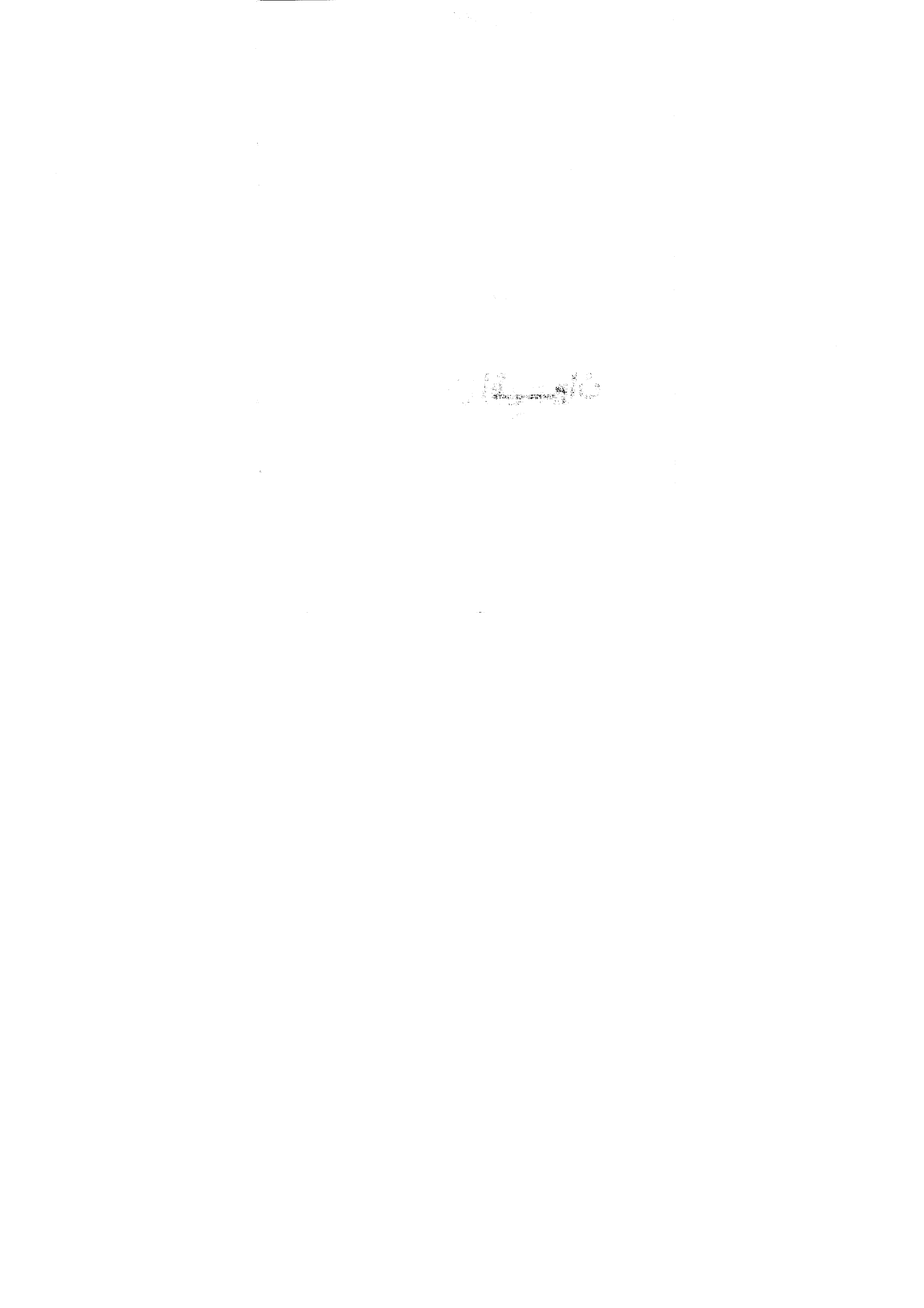
هللت صابرين المعوقة، صدحت بصوتها الصاخب المنتحب، ماما ماما، تمطرها بالقبلات.

أبوها المريض ملقى على فراشه، وصلت إلى أذنيه هذه الجلبة، كان الصوت في أول الأمر غير واضح، وصل إليه شيئا فشيئا، تبين أنه صوت صابرين تصيح من أسفل المنزل، نادى ابنه يوقظه من نومه، أختك صابرين خرجت من المنزل في هذا الوقت المبكر، أحضرها حتى لا نفقدها هي الأخرى، وتخرج دون أن نعرف لها طريقا، ولا تعرف كيف تعود إلى المنزل.

هب أحمد من فراشه فزعا، طوى درجات السلم في عجلة، رأى أمه تحتضن أخته صابرين في عناق غامر، أذهلته المفاجأة، جفل دون حراك، ألجم ولم يستطع الكلام.

تأكد الجميع أن الأم كانت تعيش بنزواتها المتعطشة في الدور الأرضي، هي في أسفل البيت مع زوجها الجديد، وأولادها وزوجها المريض في الدور الذي يليه، ببيت واحد، لا يرونها ولا تراهم، تزوجت الأسطى عبده الميكانيكي، صاحب ورشة السيارات، رجولة طاغية تنفذ في مسام الجلد، الرجل العفيّ المتين الذي يثير كوامن الجسد النائم، فيتواصل معه، نوافذ بيته مغلقة، بابه موصد، تعيش معه متخفية بزواج رسمي، انكشف أمرها للأقارب والجيران، قدمت للنيابة بتهمة الجمع بين زوجين في وقت واحد.

الميـــراث



انطلقت سيارته المرسيدس الفارهة إلى مقر عمله بالجامعة العريقة، سرح بخاطره إلى ذكرياته البعيدة، أيام أن كان يعمل بالتدريس، التدريس وحده لم يكن كافيا، أعباء الحياة باهظة ومطالبها كثيرة، جمع بين التدريس والاشتغال بالمقاولات التي تلتهم كل وقته.

زمان كان يركب عربات النقل العام، ينتظرها تأتي مكتظة بالعاملين والموظفين، يجري خلفها ليلحق بها، لم يكن راتبه يكفيه، ولا يقوم بمطالب أسرته، أولاده بالمدارس يحتاجون لمصاريف ضخمة، احتياجات بدء العام الدراسي، والدروس الخصوصية، المنزل ومتطلباته التي لا تنتهي، مصاريف خانقة اليد قصيرة، تلك الأيام السوداء لا أعادها الله، الآن فتح الله عليك وأضاف إلى عمله الرسمي بالجامعة عملا آخر، لم يكن يفكر فيه على الإطلاق، دعاه إليه حالة زميله مسعود الميسورة.

انخرط في أعمال المعمار بمؤازرة زميله وهو أيضا أستاذ جامعي، استغرق عمل الدكتور سلامة معظم وقته، لا

يفكر إلا في الأشياء التي تتطلبها حرفة المقاولات، كالاتفاق مع بعض المهندسين الذين يقومون بالتنفيذ، وجلب العمالة المتخصصة من حفر، ومجسه ووضع أساسات، وصب خرسانة، ونجار مسلح، كل ذلك يقوم به العمال تحت إشراف المهندس بمؤازرة الدكتور سلامة المقاول صاحب العمارة، وما عليك سوى الإشراف والمتابعة إلى أن تقوم العمارة الشاهقة، عشرة طوابق أو تزيد، كل طابق يتكون من أربع وحدات، تبيع العمارة بملايين الجنيهات، وتجني من ورائها الملايين أيضا.

* * *

اصطبغت الإشارة باللون الأخضر، فأيقظته من سرحانه اللذيذ، انطلقت سيارته كشهاب يشق الفضاء لا يعوقه شيء، عاد إلى حاضره وعمله الرسمي البغيض بالجامعة، أعداد الطلبة في بعض الأقسام قليل لا يذكر، لا يفكر في طباعة كتاب لا يغطي تكاليفه، ولا يجني من ورائه شيئا.

هو في حقيقة الأمر لا يهتم بالتدريس ولا يحبه، يدخل المحاضرة "برو عتب"، يبصق بعض العبارات دون روح في كل مرة، ثم يغادر الجامعة مسرعا، العمارة التي ينشئها في انتظاره، وعليه أن يدير شئونها، لا يسمح لأحد أن يقوم بهذا العمل دون وجوده.

* * *

جرى العرف أن يضع الأستاذ أسئلة المادة التي يقوم بتدريسها، مادة الدكتور سلامة صباح يوم الاثنين، لا ينسى ما حدث في هذا اليوم الذي غابت شمسه، غفل تماما عن موعد الامتحان، وعن وضع السؤال، رأسه يدور حول المعمار ولم يعد فيه متسع لشيء آخر.

اتصلت الكلية بمنزله، خرج منذ الصباح الباكر يراقب العمال وهم يشيدون العمارة، وقعت الكلية في حرج شديد، كثر اللغط بين الطلاب، وانتشرت الشائعات، أن الامتحان سيؤجل.

بعد أكثر من نصف ساعة ساد فيها الاضطراب، وضع زملاؤه بالقسم الأسئلة بدلا عنه، اضطروا أن يسألوا الطلاب عما درسوه حتى لا تكون الأسئلة في غير المقرر.

* * *

د/ سلامة يعلم في قرارة نفسه إذا تولى الإشراف على إحدى الرسائل الجامعية، يطلب من الباحث أن يطبعها أولا حتى ينظر فيها، ويبدي ملاحظاته، يستغرق ذلك شهورا، فإذا انتهى الباحث من طباعتها، ألقاها د/ سلامة على مكتبه دون اكتراث، وينسى الأمر كلية، حتى تعلوها الأتربة يتظاهر بقراءة الرسالة دون أن يستوعبها، فهو حريص على سمعته العلمية، وإن كان الطلاب لا يخفى عليهم شيء.

- اكتب كل فقرة في سطر جديد، ولا تجعل الكلام مرسلا، يضطر الباحث مرة أخرى إلى إعادة طبع الرسالة، يستغرق ذلك منه شهورا أخرى.

يتقلب صاحب الرسالة على جمر النار، ويشتعل قلبه ضيقا وبأسا، لا يستطيع أن يعترض أو يفتح فمه بكلمة، حتى لا يعرض رقبته لمقصلة المشرف، كل ما يفعله في مستقبله أن يعامل تلاميذه كما كان المشرف يتعامل معه.

* * *

قبل أن تلتهم المقاولات وقت الدكتور سلامة، كان عمله ينصرف إلى الطلاب، وإفادتهم، يوسع صدره ليتلقى أسئلتهم، ويفتح قلبه ليستوعب مناقشاتهم، كان عندئذ مرتبه لا يكفيه، ولا ينهض بمتطلبات المنزل والأولاد، ولكن بعد أن اشتغل بالمقاولات فتح الله عليه من وسَع، وصار من كبار المقاولين.

لست وحدك الذي يعمل بالمقاولات من أساتذة الجامعة، إنهم فوق الحصر.

توفي ابن واحد من الزملاء، ذهب أصدقاؤه للعزاء يواسونه في مصابه، ويسألون له الصبر، كان عددهم يتراوح بين الثلاثين والأربعين أستاذا، أعني مقاولا،

يقومون بواجب العزاء لزميل لهم، اجتمعوا كلهم في السرادق ينثرون كلمات الرثاء على روح ابن صديقهم وزميلهم.

* * *

كثير من الأساتذة المقاولين نشأ مثلي في النجوع والكفور، والقرى الصغيرة، لا نحب أن نظهر بأننا أثرياء، لا نهتم بالتأنق في الهندام، ولا الملابس الفاخرة، أما السيارة المرسيدس فهي لزوم العمل، معظمنا الآن لا يعيش حاضره، وما أصابه من ترف، يعيش في زمن جدوده وآبائه، يبغي الستر ويكتم النعمة ويخشى الحسد، لا نغير الملابس العتيقة، التي ضاقت على أجسامنا، ولا نبدّل القمصان الرخيصة التي تكاد تتهرأ ياقاتها.

دعا دكتور سلامة زملاءه لزفاف ابنه، اكتفى بتقديم كوب من شراب، دون أن تعقبه وليمة مثل كل الولائم التي تقيمها العائلات المتوسطة، إنه تقشف مطلوب، والنعمة لا يجب أن يطلع عليها حتى لا تختفي.

استغرقت المقاولات كل وقته، ومعظم جهده، لم يقدم للطلاب شيئا عن قواعد البحث، أو طريقة التفكير التي تخرجهم عما هم فيه من تخلف علمي، الطلاب يستمرئون هذا الوضع بلا تذمر، إنهم لا يبغون سوى الانتقال من سنة إلى أخرى، يخرجون من الكلية كما دخلوها، لم تدخل عقولهم معلومة مفيدة، الطلاب ينجحون ويحصلون على أوراق تخرجهم، ماذا يريدون أكثر من ذلك؟

أوراق لا تنفع في وظيفة، ولا تشفع في عمل، إنهم يسيرون في كلياتهم كأنهم مغيّبون، انقشعت أفكارهم، وانحرفت تصرفاتهم، وضاق خلقهم، سئموا الحياة ومباهجها.

والدكتور سلامة ما زال يردد في نفسه مقولته الشهيرة: "أفضل البزنس الذي يدرّ مالا، على العلم الذي يورث فقرا".

* * *

المعلم أبو دومة



أظهر أبو دومة النشاط والهمة والعمل الدائب، يدخر قروشه التي يكسبها من عمله طوال النهار دون كلل، يعرف قيمة القرش الذي يناله بكدّ عمله، يحرص عليه كل الحرص.

أبو دومة ابن المرحوم فتح الله، طلب من الحاج زهدي صاحب المركب الذي يبحر من أسيوط إلى القاهرة، أن يأخذه معه في رحلته، ويتوسط للعمل عند أحد أقاربه في سوق الجملة بروض الفرج.

الحاج زهدي يعلم صعوبة المعيشة التي يعانيها أهل الصعيد، فرحب بفكرة "أبو دومة"، واصطحبه معه في رحلته البحرية إلى القاهرة.

أوصى عليه المعلم رضوان تاجر الفاكهة الكبير بالسوق.

بعد فترة وجيزة صار الحمالون وبائعو الفاكهة وأصحاب الحوانيت يلقبونه بالمعلم أبو دومة، تقديرا لمكانته في السوق، وشهرته بين المعلّمين.

زوجة المعلم أبو دومة تحفظ النقود التي أغدقها الله على زوجها، الفكّة في المقاطف الكبيرة، والورق في شكائر البلاستيك، لعدم قدرتها على عدها وإحصائها. فإذا امتلأت وضعتها بجوار أخواتها في الخزانة.

المعلم أبو دومة بثرائه الفاحش لم يستطع أن يتخلى عن عادته في جمع النقود، والحرص عليها، حتى في معاملة أبنائه، فلم يظهر على أولاده شيء يدل على ثراء أبيهم، لا طعام ولا ملبس ولا فسح.

يذكر الناس أن خالد الابن البكر كان مع أبيه، في المحل الكبير بالسوق، تسرب من بين أصابعه قرش، فجرفته المياه وسقط في البالوعة، لم يعد ثمة أمل في استعادة القرش، فما كان من أبيه المعلم أبو دومة إلا أن أمسك بحصيرة ملوثة مدعوكة بالقاذورات ملقاة على الأرض، وانهال بها على ابنه يضربه ضربا عنيفا قاسيا، أحد المعلمين بالسوق سأله عن سبب ضربه لابنه بهذه القسوة، قال واحد من المشاهدين: سقط منه قرش في البالوعة.

خالد ابن المعلم أبو دومة يقول: كان أبي حين يريد أن يكسونا، بعد أن تكون ملابسنا قد بليت، وحال لونها، يشتري لنا أنا وأخوتي قطعا من قماش الخيم السميك، الذي يباع في وكالة البلح، يشتريه بالأقة، لأنه رخيص ويتحمل كثرة الغسيل، نذهب به إلى الخياط ليصنع منه أثوابا لي أنا وأخوتي، كان الثوب لا تتحمله أجسادنا من ثقله وشدة الحرارة التي تشع منه، خاصة في فصل الصيف القائظ. طفحت على جلودنا الدمامل والحكة الجلدية، فذهبنا إلى مستشفى الأمراض الجلدية نعالج من أضرارها، وما زالت آثارها باقية حتى الآن.

لم يكن المعلم أبو دومة بخيلا في جميع الأحوال، فقد تفاجئه نوبة كرم، فيغدق على أبنائه، وتهون عليه القروش، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بشيء من التعليم الذي حرم منه في صغره، يريد أن يجعل من أبنائه رجالا يحملون الشهادات الكبيرة، فتعوضه عما فاته، كان ينفق الكثير من أجل تعليم أبنائه مبادئ الحساب والإملاء وتلاوة القرآن الكريم، فيحضر لهم المدرس الخصوصي.

مصطفى الابن الأصغر للمعلم أبـو دومة يحبه أكثر من بقية أخوته، فهو ذكي لماح، سريع البديهة، هذه الصفات جعلته أثيرا لدى أبيه.

مرة سأله أحد المعلمين في السوق: أيهما أثقل يا مصطفى: قنطار من القطن أم قنطار من الحديد؟ رد مصطفى دون تفكير: إنهما متساويان، هلل الجميع له، من هذه الساعة والابن ذو حظوة عند أبيه، إذا ذهب إلى والده بالسوق، أخذه المعلم أبو دومة إلى الكبابجي عند مدخل السوق، ليقدم له رغيفا محشوا بالكفتة.

المعلم أبـو دومة كان رفيقا بزوجته، رغم مشاحنته لها أمام الأبناء، سمح لها بالسفر لقضاء بضعة أيام في ضيافة أختها بالإسكندرية من كل عام.

إحدى المرات وزوجه بالإسكندرية مع الأولاد دهمته أزمة الحصوة، كانت الأزمة شديدة مروعة، انحشرت الحصوة داخل الحالب، لا تتزحزح عن مكانها، حتى إن المعلم أبو دومة كان يعض الوسادة مرات عديدة من شدة

الألم، يصنع لنفسه شراب الخلة، لتتسرب الحصوة وتغادر مكانها، ولكن باءت محاولاته بالفشل.

طالبت جارتهم في السكن أن ترسل لزوجه بالإسكندرية، لتعود إلى بيتها، وتبقى مع زوجها في محنته، رفض المعلم أبو دومة، حتى لا يفسد عليهم متعتهم بجوار البحر.

المعلم أبو دومة رغم قسوته في معاملة أبنائه، إلا أنه يحبهم كأي أب يحب أبناءه، غير أنه يتسم بالصعيدية المثالية في تربيتهم، مما يحتم عليه إخفاء هذا الحب.

دخل واحد من أبناء أبو دومة المستشفى لإجراء جراحة في إصبعه الخنصر الصغير، كان الورم حميدا، والابن مستغرقا في النوم من تأثير البنج، والأب يجلس على مقعده بجواره ساهما يفكر.

دخل واحد من أبنائه الغرفة، رأى دموع والده تتحجر في عينيه، تكاد تطفر، وعندما شعر به أبو دومة يفتح باب الغرفة، سارع بمسح دموعه بكمّه الفضفاض، أراد أن يخفي عينيه حتى لا يلحظ ابنه شيئا، لم يتمالك نفسه فخانه صوته وتهدج عندما تحدث معه.

نـــــزوة

أمضى الحاج هاشم في إحدى الدول فترة طويلة يعمل بالتدريس، عرف أحوال الناس الطيبة وطباعهم الهادئة، ووقف على سلوكياتهم الواضحة، ولمس ما يحبون وما يكرهون، وما يرفضون اجتماعيا وأخلاقيا ودينيا.

الحاج هاشم يشاهد أثر الأحداث بقلبه، ويدركها بفطنته دون أن يطلعه بها أحد.

ذات مرة وهو في طريقه إلى المسجد رأى جمعا من الناس يحتشدون في ميدان عام، رآهم متحلقين في دائرة، وفي وسط الحلقة شاب وفتاة، الشاب فارع الطول، جميل الوجه، خفيف السمرة، ممشوق القوام، والفتاة فيها طول، منقبة الوجه، لا يبدو منها شيء، ثوب أسود يطوي جسدها، ويخفي عنقها، ينسدل عليها من تحت النقاب حتى القدمين، شعرها وكفاها وقدماها، لا يبدو منها شيء، تظهر عليها ملامح الاضطراب الداهم، والقلق المفزع.

أدرك الحاج هاشم ببصيرته النافذة، والناس المتحلقون صامتين يتهامسون، أن حداً سيقام بعد قليل، والمطوع

الذي ينفذ الحكم الشرعي تخطى الأربعين بقليل، ملتح شعر لحيته أسود إلا قليلا، تبدو عليه مظاهر القوة الغاضبة، والملامح القاسية، وجهه مربدّ، أمامه طاولة تعلوها قطعة من الجلد الأسود العريض، يتصل آخرها بقطعة من الخشب المتين.

القطعة الجلدية يبدو أنها تشربت بزيت حتى تصبح ملساء، لا تترك علامات في الجسد أو تلهبه بجراح.

هذا الشاب المليح الوجه تواعد مع فتاته على اللقاء داخل منزلها، هي تلميذة في إحدى المدارس الثانوية، رؤية الفتيات داخل البيوت تكاد تكون ممنوعة حتى من ذوي القربى، لا يرى بعضهم بعضا، عالم نسائي ليس فيه اختلاط، فلا يحق لرجل أن يرى امرأة ولا فتاة تظهر أمام شاب.

الفتى والفتاة التقيا دون أن يفطن أحد إلى لقائهما من الأهل أو الأقارب.

ارتدى الفتى ملابس النساء وأخفى وجهه بنقاب، ووضع في قدميه نعلا نسائيا، يطرق الباب ويدخل حجرة الفتاة في أمان.

التقيا مرات وهما على هذا الحال من الرضا والأمن والسعادة، يدخل حجرتها ويتهامسان ويضمها إلى صدره الدافئ الحنون، يغزل لها كلمات الحب والهيام، يلمس يديها، ويداعب ثدييها النافرين، تخلخل جسد الفتاة، واشتعلت غريزة الشاب ونام معها.

فجأة انتفض الفتى والفتاة، فتح الباب عنوة، وضبطا، أصابهما الذعر المميت، ونالت منهما الفضيحة اللافحة.

يضرب الآثمان كل منهما مائة جلدة،فضيحة لهما، وحماية للناس من الفسوق.

وكانت هذه الحلقة التي تضم المشاهدين لعقوبة هذا الإثم.

اقتحم المطوع دائرة المشاهدين، حتى صار في وسطها تماما، يحمل في يده اليمنى سيرا من جلد متين.

لم يصبح الجو حارا بعد، كان الوقت يقترب من الضحى، ولم تسلط الشمس أشعتها الحارقة حتى ترهق النفوس والأبدان.

تقدم الشاب المتهم بثبات وافر كأنه مدعو لحفل مع أصدقائه، لا تهتز في رأسه شعرة، ولا ينتفض في بدنه عرق، يلبس ثوبا زاهي البياض، محبوكا على جسمه، ينسدل حتى قدميه، وغترة بيضاء تغطي رأسه وتهبط على كتفيه، لا يبالي ولا يلتفت إلى الأعناق التي تشرئب له.

يرفع المطوع يده ارتفاعا طفيفا، إذا وضع شيء تحت إبطه لا يسقط، ضربات سريعة متلاحقة، لا تجرح ولا تترك أثرا بدنيا، ولكنه انتقام نفسي مريع، ليست العبرة أن ينهال المطوع بسوطه في ضرب المتهم حتى يقاسي الألم الجسدي، ولا أن يتوجع الشاب ويصرخ، فذلك لم يخطر للمشرع على بال، ولم يداخل المشاهد شك في أن هذه الضربات غير موجعة، إن الغرض منها أن يرى القوم المتهم والسوط ينهال على بدنه وظهره، إن ذلك يسقط من قيمة

المتهم، ويضع من هيبته، ويصبح شخصا رديء السمعة، ولا يقدم أحد على صحبته، يصبح في أعينهم منبوذا مطرودا، اعتدى على حرمة من حرمات الله.

انتهى المطوع من مهمته، أزاح الشاب عن متناول يده، واستقدم الفتاة، صار يضربها بالسير الجلدي كما فعل مع الشاب تماما.

مائة جلدة لا يتعدى رفع اليد ظهور الإبط، الفتاة تولول كعادة النساء يصرخن لأوهى الأسباب، وتجري الدموع على الخدود مختلطة بالنواح.

انتهى المشهد وانفض الناس، وجر كل مشاهد قدميه ذاهبا إلى عمله أو محل إقامته، لن تجد شخصا أو تسمع رجلا يتحدث عن هذه الفعلة، التي هتكت أعراض الناس، ولكنهم يتحدثون ويتسامرون في تجمعاتهم، أو انفرد بعضهم مع بعض، يتظاهرون بأنهم على علم تام بكل ما اتهم به الشابان.

أحدهم يقول: إنهما تلميذان، اختلى الشاب بالفتاة وبين يديها كتاب مفتوح تقرأ فيه الدرس، لم يتمكن الشاب

من ضبط غريزته، ولم تصبر الفتاة على شهوتها، فقذف الشاب ماءه على الكتاب المفتوح، وأثبتت التحاليل ما فعل الشاب، فأدين الاثنان.

وآخر يقول شيئا مختلفا تماما: إن الشابين خلا أحدهما بالآخر، وتهيآ للمعاشرة، ففتح الباب أخوها، وهو في العاشرة من عمره، رآهما على هذا الوضع، وعلم أهل البيت بما حدث.

ويقول ثالث: إن صديقة الفتاة الغيور وشت بهما، فعلم أهلها بالمصيبة، وتكتموا الخبر حتى وقع الشاب في قبضتهم، واتهم بفعلته الشائنة.

وهكذا تنساب الشائعات، كلٌّ يدلي برأيه ليصل إلى قاع الجريمة، ويبدي تفقهه في أحداثها، حتى صارت الحادثة حزمة من الخيوط المتشابكة، يمسك كل واحد بخيط منها، ويمده حسب هواه ورغبته، وما يسعفه به الخيال.

الوافدون الذين يعملون بهذه البلاد نراهم ملتزمين بأخلاق أهل البلد الطيبة، ولا يحيدون عن الخط

المرسوم أبدا، فإذا بدر من أحدهم شيء يخالف هذا الخط عملوا على ترحيله فورا دون كلمة واحدة، لذا ترى الوافد منهم يغمض عينيه ويصم أذنيه، ولا يفكر في شيء إلا لقمة العيش التي يوفرها له كفيله، الذي يستولي على جواز سفره بمجرد أن تطأ قدماه أرض هذه البلاد.

يتطبع المرء بطبيعة الناس الذين يتعايش معهم، يطلق لحيته، ويسبل ثوبه، ويلبس غترته، وينتعل صندله، ويؤدي الشعائر في أوقاتها، أو يؤذن للصلاة، فيقبلون على الوضوء ويتأهبون لأداء الفروض في أوقاتها.

لم يكن الحاج هاشم يقوم بهذا الدور في القاهرة، ولا في ريف مصر، أحيانا لم يكن يداوم على الصلاة، يصلي وقتا وقد يهمل آخر، حسب ظروفه وانشغاله، ولكنه في هذا البلد لا تغمض عيناه عن أداء الصلاة في أوقاتها.

* * *

المخـــادع

ذات مرة وكان الوقت فجرا، والشمس تختبئ وراء السحب الرمادية لم يحن وقت شروقها، سمع الجيران جلبة ترتفع من مكان المسجد، استطلع الجيران الأمر، اللص سرق عدة المكبر للصوت، وبعض اللمبات التي تضيء المسجد، أمسكوا باللص، علم الحاج هاشم أنه أخو زوجة المعلم عيد الذي يقيم في الطابق الأول من منزله، إذن فاللص ينزل ضيفا على أخته، في منزله هو الذي بناه من مدخرات عمله الشاق الذي استغرق عدة سنوات في دول الخليج.

طرق الباب على المعلم عيد، وكان الحاج هاشم صاحب العمارة قد اكتشف أن اللص أيضا قد سطا على المصباح الكهربائي الذي وضع في بهو عمارته، اكتشف غياب المصباح منذ مدة، ولكنه لم يظن بأحد شيئا، ونسي الموضوع برمته، أما الآن فقد وضحت القضية، وأصبح السارق للمسجد ومصباح منزله هو هذا اللص، الذي يقطن مع أخته في كنف المعلم عيد.

طرق الحاج هاشم الباب، وتبدو عليه علامات الغضب، لقد ابتلي الشارع كله بأخ زوجتك، سرق المسجد وسطا على مصباح المنزل، وهو معلق في سقف شاهق لا يستطيع اللص المحترف أن يصل إليه إلا أن يستعين بسلم، هل ساعده أحد منكم في الحصول على السلم ليتسلقه، ويطول المصباح وينتزعه من مكانه.

انبرت زوجة المعلم عيد - أخت السارق - لتبرئ ساحتها من التهم الموجهة إلى أخيها، والتصقت بالأسرة كلها.

ليس لنا الحق أن نختار إخوتنا، كتب علينا ذلك سواء رضينا أو كرهنا، فإذا كانت يده امتدت إلى شيء فهذا قدري ولا أستطيع له ردا.

نعم لا يستطيع أحد أن يختار إخوته، ولا يستطيع أن يستبدل أحدهم بغيره، ولكن في استطاعتك أن تقوّميه، فإذا تعذر عليك هذا الأمر فلك أن تتخلي عنه، ولكنك تساندينه وتقفين معه موقفا سلبيا، لا يعمل على إصلاحه،

فاستمرأ اللعبة وسعد بها، والسرقة في نهاية الأمر لا تتجاوز بضعة جنيهات، لقد قبض عليه المصلون ودونوا سرقته في محضر الشرطة، يحال بعدها للنيابة، وأنتم تشاهدون ذلك ولا تتحرك فيكم شعرة واحدة، وكأن الأمر لا يعنيكم.

ظهرت ملابس سوداء تحمل عنقا أسمر يعلوه وجه فرعوني تملؤه عينان واسعتان، ملامحها قاسية، كانت الكآبة تغطي سحنتها، واللوعة تبدو في صوتها، بعد أن علمت بدخول ابنها قسم الشرطة، وزج به في الحجز.

ابني دخل السجن، أخوك يا هنية ألقي به في الحجز، يلاقي الهوان مع المشردين والبلطجية، لا يا هنية، لن يكون لأخيك هذا المصير، وإذا بشخرة عالية تصدر عنها تقطع كلامها، وشخرة وراء أخرى لم يدهش لها أحد من الحاضرين سوى الحاج هاشم، ماذا تظنون بنا، نحن لا نصبغ شفاهنا باللون الأحمر كما تفعل السيدات، ولا نحمل في أيدينا حقيبة كالتي تحملها الآنسات، تتبختر بها في الطرقات، نحن نبعنا من بيئة ونسكن في جحر، نعيش يوما

بيوم، لا ندري ماذا يخبئ لنا الغد، ولا كيف يكون المصير، أجل ابني هجام ولص، لم يجد ما يناسبه غير هذه السبوبة، فكيف يعيش هو وأسرته؟ هل يتكفف الناس ولا يسعفه أحد؟ أم يستولي على ما تصل إليه يداه دون مذلة؟ وإذا دخل السجن مرة، فلن يعيش فيه للأبد، ثم يغادره ويعود لممارسة السرقة، كتب علينا نحن الفقراء أن نعيش بهذه الطريقة، إذا سرق الفقير لأنه لا يجد قوته فهو معذور، ولكن لماذا يسرق الغني وفي بطنه ألوف مؤلفة؟ ولا يكف عن ممارسة السرقة، ينظر الناس إليه نظرة ملؤها التبجيل والتقدير.

الفقير المجدب قلبي ينفطر عليه، فإذا قبض عليه فالتنكيل به، والويل له، وإذا حاول التخلص من السرقة لم يسعفه الناس، ولم تساعده الظروف، فيظل يدور ويدور حولها بجميع أنواعها، حتى المصباح الصغير الذي لا يزيد ثمنه عن جنيه واحد، إذا وجد الفرصة لسرقته بادر بالاستيلاء عليه.

أزعج هذا الكلام الحاج هاشم، يبدو أن هذه العائلة درّب أفرادها على السرقة منذ نعومة أظفارهم.

لم يمض أسبوع واحد حتى وقفت سيارة أمام المنزل من طراز البيجو، أنيقة فارهة تدل على ثراء صاحبها، بداخلها شخصان، سألا عن المعلم عيد، الذي يقطن بالطابق الأول، لم يكن في المنزل، خرج هو وأسرته صباحا ولا نعلم إلى أين ذهب.

تكررت زيارة السيارة البيجو تسأل عن المعلم عيد، وفي كل مرة ليس له وجود، اضطر صاحب السيارة أن يخبر الحاج هاشم بما جاء من أجله.

لقد أخذ المعلم عيد مبلغا كبيرا من الرجل صاحب السيارة، ليشتري له بضاعة، فلم يحدث، ولم يرد المبلغ، واختفى عن الأنظار، ونحن نبحث عنه دون جدوى. نرجو أن تخبره أننا سألنا عنه وسنحضر للقائه خلال هذا الأسبوع، لنسترد منه ما أخذه منا.

عرف الحاج هاشم أن المعلم عيد الذي يقطن في منزله، ويأوي معه أخا زوجته اللص، عائلة يتأصل فيها النصب والمراوغة.

داهمت الحاج هاشم الكوابيس المزعجة والأحلام الخانقة، وبات قلقا تتقاطر عليه الأفكار السوداء، لقد أصبحت هذه الأسرة شيئا كريها ومزعجا، وأصبح هاشم غير قادر على احتمال هذه المعاناة، إنه يأوي في منزله عصابة من اللصوص والمخادعين والنصابين، يلقون في أذن الضحية كلاما له مذاق العسل، فينصاع وراء أوهامه، إلى أن يستيقظ فجأة وليس في فمه سوى طعم المرارة والضياع، وأن كل ما وعد به لم يتحقق.

قرر الحاج هاشم في نفسه أن يطرد المعلم عيد الساكن النصاب، ويخلي المسكن دون أن يشعره بأنه طرد، فربما عاند واستعصى على الخروج.

إن شخصا حضر إليك بسيارة أنيقة ومعه صديق، ويريدك في أمر هام، لا أعرف ما كنهه، ولكنه ألح أن يراك، فاعتذرت له أنك غير متواجد، وسيزورك خلال أيام.

امتقع لون وجهه وراح بناظريه بعيدا، يفكر فيما يمكن أن يحدث.

تعمد الحاج هاشم أن يتفوه بهذا الكلام حتى يحثه على ترك المسكن قبل أن يداهمه صاحب السيارة ولا يمكنه أن يتملص منه.

في اليوم التالي أخبر عيد صاحب البيت أنه سيغادر المسكن اليوم، حتى لا يفتضح أمره، ويعرف الجيران أنه يمتهن النصب، ووقع فريسة له عدد من الساذجين.

برقت في ذهن المعلم عيد ومضة خاطفة، سرعان ما قال في صوت هامس خجول: ألا يمكنك أن تقرضني مائتي جنيها أدفعها مقدما لمسكن جديد؟

أدار الحاج هاشم هذا العرض في ذهنه، إنه يشتري سمعته وسمعة بيته بهذا المبلغ الزهيد، يعرف أنه لن يستردها من هذا الأفّاك، لا بأس، أخبره أنه حاليا لا يملك هذا المبلغ، وأنه سيحاول الحصول عليه من جيرانه، كان

حتما عليه أن يخبره بذلك حتى لا يطلب المزيد فيرتفع المبلغ المطلوب.

المبلغ المطلوب كان في جيب الحاج هاشم، تظاهر أنه لا يملكه، وسيحصل عليه قرضا من جاره في المنزل المواجه، أعطاه طلبه، وحمل الرجل أغراضه في عربة، ورحل إلى سكن جديد وأرض لا يعرفه فيها أحد، ليمارس هوايته في النصب، ويلقي شباكه على الناس الطيبين أو الطامعين، وينعم بما يستولي عليه بذكائه الخارق، وغباء من يتعامل معهم، فيطاردونه من مكان إلى آخر، وهو يترك مسكنه الذي يعيش فيه ويبحث عن مأوى جديد، ولكن بعد أن يخرج لهم لسانه.

أوتوبيـــس

كان يتحتم عليه أن يخرج من بيته مبكرا ليذهب إلى عمله في بولاق الدكرور.

وقف على محطة الأتوبيس، وقف وقتا طويلا كأنه دهر، أخيرا جاء، وقف الأتوبيس بعيدا عن المحطة بمقدار ثلاثين مترا، هرول الناس إليه، السيارة تحتشد بالركاب، ولفظتهم على الأبواب، ليس ثمة موضع لقدم، انحشر الناس وصاروا كتلة من اللحم، صاح أحدهم للمحصل: أوقف السيارة، راكب يكاد يسقط، ادخل واترك مكانا لغيرك، لا، ادخل أنت، ليس أمامي ولا مقدار خطوة.

فتح الباب الأمامي، صعد رجل كبير السن، المقاعد الأمامية للمعوقين، وكبار السن، يجلس في المقعد الأمامي رجل كهل، استعمل الحق الذي سمحت به الهيئة، يجلس ابنه المراهق بجواره، طلب الكبير الواقف من الصغير أن يخلي المكان له، أوشك على النهوض، ولكن أباه قال للمسن: إن ابنه قام بعملية جراحية في قدميه، ولو وقف لسقط على الأرض، واحتفظ الشاب بالكرسي، وبقي الرجل المسن واقفا يلهث.

تطلع الرجل المسن إلى المقعد الذي يليه، وجد شابا في عنفوانه يجلس وينظر بعيدا حتى لا يقع بصره على الرجل المسن، طلب إليه المسن أن يجلس لأنه متعب ولا تكاد قدماه تحملانه، ابتسم الشاب وتشبث بمكانه، والمقعد الذي يليه طلب من الشاب الجالس أن يقرأ ما كتبته الهيئة على الجدران، ليخلي مكانه، ولم يمتثل، رأى في وسط العربة رجلا مسترسل اللحية، يبرم حبات مسبحته، خجل العجوز أن يطلب منه الجلوس، ولكنه تغافل، الناس سقطت عنهم المروءة، ولم يشفع له كبر سنه، انمحى منهم الذوق والخلق، وصاروا لا يعيرون أهمية لأحد.

صخب وجلبة عند المحصل، أشخاص يتنازعون، هوّ فيه إيه؟ حطمت رجلي، ما اتعرضهاش، أنا لم أمس قدمك، ولم آت ناحيتك.

الجو خانق والنافذة مغلقة، افتح النافذة، [الهواء مترب، والغبار لا يطاق]، افتح النافذة حتى لا نختنق.

في هذا الجو المكدس بالركاب أشعل السائق سيجارة تحية لصديقه، تبادلا الكلمات، السائق في واد والركاب في واد آخر، لم يستطع واحد من الركاب أن يلفت نظر السائق، حاول أحد الركاب أن يمنع راكبا من إشعال سيجارته، لماذا تطلب مني ذلك، ولا تستطيع أن تطلبه من السائق وصديقه؟

صاح المحصل زاعقا:

– الذي طلع من أمام يدفع، خمسة صعدوا السيارة، ولم يرسل ثمن التذكرة غير ثلاثة فقط.

النساء اللاتي ركبن ولم يرسلن، النساء تركبن في اندفاع ولهوجة، وعند الدفع يتباطأن.

– انتظر الله يعمر بيتك، وينجيك من المهالك، المحطة فاتت.

– يا ستي استعدي للنزول، وكوني على الباب.

امرأة تحمل ابنتها الرضيع على كتفها، وتصعد من الباب الأمامي، الرجال لا يغيثونها ويتنازل واحد منهم عن

مكانه، امرأة تناديها وتخلي مكانها لتجلس المرأة وهي تحتضن ابنتها.

تصعد امرأة تحمل قسطا من اللبن، تنوء بحمله، ولكنها مضطرة سعيا للرزق، العربة ممتلئة عن آخرها، يزيدها قسط اللبن ازدحاما وتعثرا.

الموبايل يدق في تواصل، يحمل نغمة موسيقية عالية، من الذي يتكلم؟

....

- أوراق القضية غير مستوفاة، تأجلت لشهر سبتمبر بعد ثلاثة أشهر. صوت المتكلم رفيع وحاد، كأنه يترافع في إحدى قضاياه، يتحدث في فضاء وليس في أتوبيس وحوله خلق لا يحصى.

هبط من الأتوبيس عند محطته متوتر الأعصاب، منحرف المزاج، ويحلم بامتلاكه سيارة تقله لعمله دون أن يعاني مشكلة المواصلات والزحام.

* * *

الدكتور فــــرج



هوى صالح الشوادفي في جب عميق مظلم، يتخبط في سواد حالك، رأى على مرمى البصر ضوءا ينبعث من كوة في أعلى الحائط، وصل إلى منبع الضوء، وإذا بضوء كاشف يضيء له المكان.

أبي،أبي، استيقظ، خرج أخي الصغير فرج مع أختي رقية بملابس البحر، أفلت من يدها، غفلت عنه ولم نعثر عليه.

لملم نفسه المبعثرة وجمع حواسه الغائبة، ردد في نفسه: يبدو أن نصف الحلم بدأ يتحقق، وتفل عن يمينه وعن شماله.

خرج يعدو بملابس نومه، يبحث عن ابنه فرج، الابن الأصغر الأثير إلى قلبه، طفل في الخامسة من عمره، أهملت أخته في ملاحظته، وهي تشتري له الفريسكا.

اختفى ولم تجد له أثرا، مسحت أخته الشاطئ جيئة وذهابا تسأل عنه المصطافين رجالا ونساء وأطفالا، فلم يهتدوا إليه، عادت إلى البيت كسيرة النفس تخبرهم بفقدان أخيها.

طفل صغير يمسك بيد أخته، يتهادى على الشاطئ، أين ذهب؟ أخشى أن تكون مياه البحر قد استهوته، فجرفته الأمواج، سكن في قاع البحر، ربما رآه أحد المصطافين يبكي، سأله عن مكان أسرته، سار معه متشبثا بيديه، حتى هداه إلى المسكن فأودعه فيه.

الفجيعة هزت وجدانه، صورت له جميع الاحتمالات من فقْد، وغرق، وعودة.

عاد إلى البيت يحدوه الأمل، ولكنه لم يصل ولم يأت به أحد.

ماذا يفعل، هرع كمجنون يذرع الشاطئ، تغوص قدماه في الرمال، يسير بين المظلات المنتفخة بفعل الهواء، والمظلات المغلقة، يسأل أهل الكبائن، يبحث عنه بلا جدوى.

رجل من أهل بلطيم، رأى الشوادفي يسير ملتاعا، يبحث عن ابنه المفقود، أخبره أن يذهب اليوم إلى المسجد، وبعد صلاة الجمعة يعلن عن فقد ابنه، ذهب إلى

المسجد، أخبروه بضرورة الذهاب أولا إلى قسم الشرطة، ويحصل على إذن بالإعلان، حصل على الإذن، ذهب يصلي الجمعة مع المصلين، بعد الصلاة، وقف فيهم يخطب، صوته متلهف مرتعش، يخرج بصعوبة من حنجرته، كلماته مبعثرة، لا رابط لها، تعلن عن فقد ابنه الصغير الذي لا يتجاوز الخمس سنوات، ضلّ على الشاطئ واختفى، أخبره واحد أنه وجد طفلا يمشي بملابس البحر على الشاطئ وهو يبكي، يسأل عن أبويه، عيناه تمتلئ بالدموع، دائم النشيج، سرت معه حتى دلني على منزله، إذا ذهبت إلى المسكن وجدته يلعب ويمرح مع أخوته.

صالح الشوادفي وجد ابنه فرج بين أخوته، كأن قلوبنا لم تنفطر عند فقد أحدهم، ولم تنشرّخ حلوقنا في النداء عليهم، والبحث عنهم، وحمد الله على ما كان، كان يوما عصيبا فقدت فيه الأسرة كل متع المصيف.

* * *

مضى الوقت سريعا، وأصبح فرج الصغير في السنة الثانية من الثانوية، كان العام الأخير لعقد والده في

إحدى دول الخليج، عاد مع أسرته إلى القاهرة وهو بالثانوية العامة.

الدراسة في مصر تختلف عنها في دول الخليج، يريد أن يتأقلم مع المنهج والدراسة في مصر، بذل فرج كل ما يستطيع من جهد، ولكن مجموعه لم يوفقه لدخول الطب الذي يحلم به، بكى بكاء مرا، كان ينتحب، استبدت به الحسرة على خيبة أمله وضياع مستقبله، كان يبدو مكفهر الوجه، ساهم الفكر، يحلم بكلية الطب التي يعشقها، ويرى أنه كفء لها، ولكن حظه العاثر، أفقده التطلع إلى مهنة الطب.

اقترح على أبيه أن يلتحق بطب رومانيا مع بعض زملائه، يمكث عاما أو عامين على أكثر تقدير، بعدها يحول إلى طب القاهرة، وعندئذ تتحقق آماله، وينتصر على حظه المعاند.

رأى الوالد أن يحقق أمل ابنه فرج، وألا يقف في سبيله، ولا يقصر معه في أداء الواجب، وأن يبذل أقصى ما يستطيع.

بعد فترة لم تطل من بقائه في طب رومانيا، عاد مع صحبه إلى القاهرة، والتحق معهم بطب القاهرة، بعضهم ينتمي لأسر كبيرة وعائلات مرموقة.

الصحافة لم تغض بصرها، أثارت الموضوع وذكرته برمّته، شهّرت بالكلية العريقة وسمعتها، ونشرت أسماء الطلاب المحولين من رومانيا إلى طب القاهرة، استثنت بعض الأسماء التي تنتسب إلى آباء يعملون في مواقع هامة بالصحافة، لم تذكر أسماءهم، فصلت جميع الأسماء التي نشرت الصحف أسماءهم، ولن يعودوا إلى الكلية إلا إذا رفع كل طالب قضية مستقلة على حدة ضد الكلية لتعسفها في فصلهم.

لا تُعرف الفترة الزمنية التي تتطلبها هذه القضية، ربما تستغرق عاما أو بضعة أشهر.

عاد فرج مرة أخرى إلى رومانيا، تعرّف هناك على بعض المصريين الذين يعملون بتجارة الملابس، يروجون لها من رومانيا إلى بودابست بالمجر، وغيرها من البلاد

المتاخمة، عمل وزملاؤه معه، كي يكسب عيشه، ويخفف بعض النفقات عن والده، أبوه لم يبخل عليه بشيء على الإطلاق، ولكن هكذا كان يفكر فرج.

بعد فترة وجيزة اتصل فرج بوالده في القاهرة، يخبره أن بعض أولياء أمور زملائه الذين يدرسون معه في رومانيا، حضروا هنا ومكثوا يوما واحدا، وعادوا بأولادهم إلى القاهرة بعد أن حصلوا على شهادة تثبت أنهم مقيدون بطب رومانيا بالسنة الأولى، رحبت بهم طب القاهرة، دخلوها من أوسع أبوابها.

لم يصدق الشوادفي والد فرج ما قاله ابنه، ما حدث - إن كان صحيحا- هو أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع، طلب من فرج أن يمهله أسبوعا واحدا حتى يذهب إلى الجامعة، يستقصي الأمر ويتحقق منه.

* * *

ذهب الشوادفي إلى الدكتور عميد الكلية بأوراق ابنه مستوفاة تماما، شهادة الميلاد، والثانوية، والدرجات التي حصل عليها.

نظر فيها العميد، وجد أن درجاته في المواد العلمية تؤهله لدخول الطب، وافق أن تعرض أوراقه على مجلس الكلية للموافقة، تمت الموافقة، وفي اليوم التالي ذهب والده لاستخراج بطاقة من الكلية تثبت تسجيله بالكلية.

* * *

حين همّ فرج بالقدوم إلى القاهرة، كان معه زميل قاهري يعيش نفس ظروفه، لكنه فضل أن يبقى في رومانيا، وعليه دفع مبلغ ثلاثة آلاف دولار للكلية حتى لا يفصل منها.

أبوه تاجر زجاج في بلبيس، حدث أباه تليفونيا أمام فرج، أخبره أنه سيقترض من زميله هذا المبلغ، وعليه أن يسدده له حين يفد إليه في بلبيس، رحب الرجل ووعد بدفع المبلغ حين يحضر فرج إلى القاهرة.

ذهب فرج مع والده غير مرة إلى والد الصديق الذي اقترض منه المبلغ، في كل مرة كان يعتذر، ظروفه المادية غير مواتية، هكذا يقول.

مـرة طلبـه في المنـزل، قالـت زوجتـه مـا اعتـادت أن تقول: "الدنيا ضربتنا، وملطسة معانا على حظك" ودخلت معه في عمليـة نصـب، "لم نستلم مليمـا واحـدا مـن هـذا الدين"، حتى تخرّج فرج وأصبح طبيبا.

كـان فـرج متعبـا في طفولتـه، وفي شـبابه، في طفولتـه حـين ضـل طريقـه علـى شـاطئ بلطـيم، وفي شـبابه حـين تغـرّب وضـاعت نقـوده الـتي أقرضـها لصـديقه، ليعينـه في غربته.

* * *

الســت زينــب



زينب وأختها نشوى متزوجتان، تقطن إحداهما في مواجهة الأخرى بمنزل واحد.

زينب متزوجة من رجل طيب، مدرس لغة عربية، تخرج في كلية دار العلوم، تبدو عليه السكينة والوقار، يشغل أوقات فراغه بتلاوة القرآن الكريم.

زينب امرأة ضخمة، أعضاؤها متناسقة، نهداها كرتان كبيرتان، وجهها أبيض مستدير، مؤخرتها ماجور عجين، إذا أطلقت عليها كلمة "المحمل" فأنت لم تبعد عن الصواب.

نشوى الأخت الصغرى تقاربها في الهيئة، وإن كانت أقل منها بدانة، متزوجة من مدرس بمدرسة الصنايع.

تعيش الأختان كلّ مع زوجها في غاية الرضا والقناعة، إذا جرى حديث بين زينب وأختها في شأن من الشئون العادية، وصلت كلماتها إلى كل الجيران، صوتها مرتفع يملأ الأذن الصماء، يصك السمع بنبرته الرنانة العريضة، صوتها يجذبك بطريقة لافتة، تتحدث وكأنها تتشاجر مع أختها، فكيف إذا تشاجرت؟!

أحيانا زينب تتشاجر مع زوج أختها، الأستاذ راتب المدرس بمدرسة الصنايع، لا يرضخ لمشيئتها كما يرضخ زوجها، تشتمه وتلعن أباه وجدّه وأقرباءه بشتى الألفاظ السوقية، الكلمات سريعة والأخت صامتة.

زوج الأخت يسمع الشتائم بأذنيه، تارة لا يجيب، أو بالأحرى لا يستطيع أن يجيب، فإذا رأى أن يدفع عن نفسه أذاها، فالأمر عندئذ لا ينتهي عند هذا الحد، وإنما الست زينب تنفخ في اللهب فيزداد اشتعالا، وتقيم الدنيا ولا تقعدها إلا بعد أن تنال حقها تالت ومتلت، - إن كان لها حق - وفي الغالب تتشاجر معه لأوهى سبب، أو دون سبب على الإطلاق.

يسكت الأستاذ راتب على مضض، بعد أن توسعه شتما وإهانة، بصوتها المجلجل كناقوس الكنيسة.

زوجها الأستاذ عبد الحكيم يسمع شتائم زوجه النابية لعديله، فلا ينبس بكلمة، وكأنه يغض سمعه على ما تناثر من كلمات لها دويّ الرصاص على صدر عديله، لا حيلة له

في الأمر، يبغي السلامة مع زوجه، يخشى أن يعرض نفسه لبطشها، فيعلم الجيران أن زوجته صاحبة الكلمة النافذة في المنزل، فليس عليه سوى الاستسلام والإذعان، يشعر في داخله بنوع من السكينة وخلو البال.

كانت زينب نموذجا للمرأة العاتية التي يخشى الجيران بأسها، وإن لم تحتكّ بواحدة منهن، ولكن الجميع يفزع من سماع صوتها.

* * *

صفية الابنة المراهقة لزينب لم تكن تتعدى الخامسة عشرة من عمرها، يراها عباس ابن الجيران، فتى مراهق في السابعة عشرة، يسكن في المنزل المقابل، يراها كل صباح وهي ذاهبة إلى مدرستها، يبرهن لنفسه قبل أن يثبت لغيره من الأصدقاء أنه ولد حبّوب حليوة، تقع الفتيات في هواه بمجرد أن يشير لواحدة منهن، أوصى أخاه الأصغر سالم، إذا خرجت صفية من الباب أو ظهرت من النافذة عليه أن يخبره.

غازل عباس صفية مرة ومرات، حتى استسلمت لهواه، تبادله الإشارات والابتسامات، وتضم كراساتها إلى صدرها في حنان وهيام.

* * *

يوما ما رأتها أمها وهي تتبادل الإشارات والابتسامات مع جارهم، الفتى ابن المعلم مرسي تاجر الفاكهة، رأت عباس يوجه هذه الحركات من وراء نافذته حتى لا يطلع عليها أحد.

أرادت زينب أن تذهب بنفسها للمعلم مرسي وزوجه، وتلقنهم درسا في الأخلاق وحق الجار.

خشي الأستاذ عبد الحكيم أن تذهب زينب إليهم فيعلم الجميع ما حدث، والمعلم مرسي كشأن التجار لا يحب أن يتفاهم مع امرأة.

- لا تهتمي بهذا الأمر، فهم مجرد صبيان، والمعاكسات شيء غريزي عند المراهقين والشباب، سرعان ما تُنسى ولا يهتم بها أحد، وينبغي ألا نحمل الأمر أكثر مما يحتمل.

ذهب الأستاذ عبد الحكيم مدرس اللغة العربية يشكو من ابن المعلم الذي يغازل ابنته، قال في تعقل الرجل الذي يزن الأمور:

- إن ابنك وابنتي في سن خطر، سن المراهقة، ولا نريد للأمور أن تتطور، فنخسر سمعتنا في الحي، أرجوك يا معلم مرسي أن يكف ابنك عن مغازلة ابنتي صفية، فأنتم جيراننا، وسمعتكم طيبة لا غبار عليها، فلا يصح أن تسوء سمعتنا بسبب ابنك، وأنتم خير من يعرف حق الجوار، وأظن أن هذا الأمر لا يرضيك يا معلم.

تغضن وجه المعلم واستشاط غضبا، ثار في وجه زوجه التي لم تعرف كيف تربي أولادها، وعرضته لسماع هذه الأقوال، أخذ يرغي ويزبد، ويلعن ويشتم، وفي النهاية نحمد الله أن زينب زوجة الأستاذ عبد الحكيم لم تحضر بنفسها، و إلا فضحتنا وعرف الشارع كله مصيبتنا، فكلماتها رنانة يسمعها الناس جميعا، ولا تخفي شيئا.

* * *

نادى ابنه الأكبر عباس، شرع في تأنيبه ولومه، وقبل أن يهم بضربه بكفّه الذي يبدو كمطرحة الخبيز، قال عباس:

- لم أكن أنا الذي غازل صفية، إنه أخي سالم.

كان عباس قد اتفق مع أخيه الأصغر سالم، الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من العمر، أن يقول لأبيه إنه بطل القصة الغزلية، فسنّه الصغيرة لا تحتمل الشك، فهو لم يبلغ بعد سن المراهقة.

قالت أم عباس: هذا لعب تلامذة.

وبذلك نجا عباس بكل تأكيد من هذه العلقة الساخنة التي كانت في انتظاره.

* * *

زوزو العـرجاء

تقطن زوزو الست الطيبة الرقيقة مع ابنها محمد الطالب في كلية الطب بالسنة الأولى، زوزو لا تختلط بأحد ولا تتحدث مع أحد إلا إذا دعتها الضرورة لذلك.

زوزو تتكئ في مشيتها على إحدى قدميها لعلة أصابتها في صغرها، فتبدو كأنها عرجاء، لم تكن عرجاء بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة، كانت (تزكّ) زكّا خفيفا لا تلحظها إلا العين الفاحصة.

ياسر الابن الأكبر للمعلم محمد صاحب العمارة يحلو له أن يجالس أصدقاءه من أهل المنزل وسكان الشارع، أعمارهم لا تزيد على اثني عشر عاما، رأوا زوزو تسير متكئة على إحدى قدميها، فأطلقوا عليها "زوزو العرجا" ياسر يجمع أصدقاءه، ويتعقبون زوزو إذا سارت أو توقفت، يصيحون خلفها "زوزو العرجا، زوزو العرجا" يزفونها من حيث يرونها إلى أن تصل منزلها. زوزو تسير أول الأمر في تؤدة وثبات كأن الأمر لا يعنيها، لا تتلفت يمينا أو يسارا، ووراءها الأولاد بزعامة ياسر الصبي يصيحون مهللين مستهزئين بزوزو العرجاء.

استمرت هذه اللعبة أياما كثيرة كلما رآها الأولاد في غدوها أو رواحها تسير في الطريق، ينبذونها بهذا اللقب، تشعر زوزو بالغضب والانكسار وقلة الحيلة، ليس لها صلة بهؤلاء الصبية، أو بهذه البيئة المتردية التي لا تعرف خلقا ولا تربية.

زارت أم ياسر في شقتها بالدور الأول، وأخذت تشكو في صوت متهدج والدموع تنساب من مآقيها:

يا أم ياسر، ابنك ياسر وأصحابه يسيرون ورائي مهللين بأقذع الألفاظ، يرددون زوزو العرجاء، هل يرضيك هذا؟ إن قلبي يتشقق حين تصكّ هذه الكلمة أذنيّ، ورجتها أن تخبر أبا ياسر لعله يكف ابنه عن تكرار هذا الفعل المشين، وأنتم أناس تعرفون الأصول جيدا.

هل تخبر أم ياسر زوجها بما ارتكبه في حق جارتهم زوزو الست الطيبة، إنه يأتي من عمله منهكا وليس في صدره متسع لكلمة واحدة، فإذا علم بما ارتكبه ابنه فسينقلب أمر البيت.

وأيقنت أم ياسر أن أباه إذا بلغته هذه الشكوى، فسيأتي بياسر ويوثقه في عمود السرير، ويضربه بسير من الجلد رشقت في جوانبه بضعة مسامير، لتكون أشد في الألم، حتى يدرك قبح ما فعل ولا يعود إليه مرة أخرى، ويكيل له من الشتائم وألفاظ السباب، هذه هي طريقة المعلم أبو ياسر في تربية أبنائه، وأخذهم بالشدة التي لا تهاون فيها، حتى يضمن سيرهم على الاستقامة ولا يحيدون عنها.

أم ياسر رهيفة الحس، قلبها رقيق، ولا تتحمل أن يضرب ابنها ياسر أمام عينها، تخاف عليه من قسوة أبيه وغلظته التي لا تعرف الرحمة، أشفقت على ابنها، لم تخبر أباه بما ارتكبه في حق زوزو، لكنها نصحته ألا يعاود هذا الفعل الشائن مرة أخرى، وإن عاد إليه ستخبر أباه بما زلف به لسانه، وستعرف ما تستحق من ضرب وإيلام.

لم تجد زوزو تغيرا في سلوك الأولاد، يسيرون خلفها وفي مقدمتهم ياسر يرددون في هتاف صاخب تحدوهم

السعادة والبهجة: "زوزو العرجا، زوزو العرجا"، بذلت زوزو ما بوسعها ليكف الصبية عن ملاحقتها، سكتت عن الإهانات التي لحقتها ولم ترد عليها، فلم يظهر للشكوى أثر واضح، وظل الحال كما هو دون تغيير.

لجأت زوزو إلى حيلة بسيطة لا تكلفها شيئا، حيلة مؤقتة إلى أن تجد مخرجا، لا بأس أن تجربها: طلبت من ابنها محمد الذي يدرس بكلية الطب، أن ينزل من عليائه وينشئ صداقة مع ياسر وأصحابه، يلعب معهم الكرة ويصادقهم ويسامرهم، أتتْ تلك الصداقة المفاجئة بفائدة كبيرة لم تكن زوزو تتوقعها.

اندمج ابنها مع ياسر وأصحابه، يتعامل معهم كواحد منهم، يلعب الكرة معهم، ويجلس بينهم، ويسامرهم فترة قد تمتد في بعض الأحيان إلى أكثر من ساعتين.

صفا الجو، وسكتت الأصوات التي كانت تلاحق زوزو حين تمشي، وسادت علاقات الألفة بين زوزو وبين ياسر وأصحابه بفضل ابنها، سارت الأمور بينهما سيرا طبيعيا في رضا ومحبة.

رأت زوزو - وابنها - أن تلوذ بالفرار من هذا المكان الذي أرّق جفونها، فأخبرت أم ياسر برغبتها في ترك الشقة، لأنها كبيرة عليها. فقد حصلت على شقة مناسبة بالقرب من ميدان العباسية.

وأخيرا طارت اليمامة الرقيقة، هجرت عشها القديم الذي يعج بالصخب، وحطت على عش جديد أكثر راحة وأمنا.



صـداقـة

دلف الدكتور رشدي إلى الغرفة الفسيحة التي تعد من أكبر غرف الكلية، كانت معدة للكنترول، وجمع الأوراق وترقيمها، غرفة بها منضدة طويلة، وكثير من المقاعد.

وجد رجلا، يراه لأول مرة، شارد اللب، مهيب الطلعة، في الستين من عمره تقريبا، رآه مضطربا لا يستقر نظره على شيء، كأنه ينتظر إجابة من أحد على سؤاله الذي يلح عليه، أغلب الظن أنه ولي أمر طالبة يحاول أن يعرف نتيجتها.

أراد الدكتور رشدي أن يبدد حيرة الرجل، سأله عن سبب وجوده.

- الدكتور رشدي؟ أخبروني أنه يعمل في هذا المكان، جئت إليه أستطلع النتيجة.

فكر رشدي قليلا

- النتيجة سلمت إلى كلية التجارة، يمكنك أن تحصل عليها من هناك. قام الرجل بتعريف نفسه.

علم رشدي أن هذا الرجل كان يعمل مستشارا بسوهاج، وأحيل للتقاعد، جاء مع ابنته لتلتحق بالدراسات العليا.

انخرط الاثنان في حديث ودي، حتى هم المستشار بمغادرة المكان.

- بطبيعة الحال ليست معك سيارة، وأنت آتٍ من سوهاج.

أوصله بسيارته إلى خارج الكلية.

تردد المستشار أكثر من مرة على مكتب رشدي، توثقت الصلة بين الاثنين، دعاه مرة إلى الغداء في النادي الأهلي، ورد المستشار له الدعوة في نادي القضاة على كورنيش النيل بالعجوزة.

أصبح المستشار يفد كثيرا على الكلية، يطرق مكتب الدكتور رشدي، فإن لم يجده انتظره، فإذا كان له طلب أداه إليه، ثم يخرجان معا إلى حيث يتفق الاثنان، يقضيان وقتا في الحديث عن شتى المجالات والمشكلات التي يعاني منها الناس وتطفو على السطح، كغلو الأسعار، وتفشي البطالة، وأزمة المواصلات، وتراكم الفضلات أمام النواصي: حجارة وصفائح وقاذورات، شدة الفقر وضيق اليد، وقلة الوظائف، إلى غير ذلك من المشكلات التي اعتاد على رؤيتها المصريون، ويقضون أوقاتهم في الحديث عنها.

جاءت ابنته من سوهاج، سافر زوجها في إعارة، ترك لها طفلين، الأكبر في السادسة، والآخر في الرابعة مصاب بمرض جلدي.

رشدي على صلة بزميل في الجامعة أستاذ أمراض جلدية، ذهبا إلى منزله، وكتب له العلاج، سأل صديقه المستشار عن نتيجة العلاج، قال إنه لم يشتر الدواء ولم يهتم بذلك.

بعد أيام قلائل اتصل به الزميل الطبيب. إن ابنه في الثانوية العامة ويطلب من د/ رشدي أن يعينه في مادة النحو، وطبعا لم يستطع التعلل ببعض الأعذار، أعطاه ثماني حصص دون مقابل، أو بالأحرى في مقابل الكشف الذي قام به لحفيد صديقه المستشار، لا بأس، فالناس بعضهم لبعض وإن لم يشعروا خدم.

كانت المودة بين رشدي والمستشار متبادلة ودائمة، أحيانا يدعوه للإفطار في شهر رمضان، وإذا رغب في أمر يحتاج إلى سيارة كان يصحبه حتى المكان المراد. الصلة بين الاثنين لا تنفصم ولا تهن، إذا بدر من أحدهما شيء يتغاضى عنه الآخر وإن كان يمقته، سارت الأمور على هذا المنوال سيرا طبيعيا لا يفسد صفوها كدر، ولا تذروها رياح.

كانا يجلسان في النادي الأهلي يتسامران، انتقل الحديث على ابنته الطالبة، هل حفظت ما قررته الجامعة من القرآن في هذه المرحلة؟

فـوجئ بهـذا السـؤال، لم يكـن يتوقـع أن الطالبـات الملتحقـات بالدراسات العليا مكلفات بحفظ شيء من القرآن، فزع وظهر عليه الاضـطراب الشـديد، أخـبره رشـدي أن المـدة الباقيـة للامتحـان طويلة، ويمكنها أن تستوعب المقرر على مهل، فلا داعـي للخـوف، وأخبره أنه على صلة بعميد الكلية فهو صديق لـه، ويقطـن بجـواره، ويمكن أن نسأله فعنده الجواب الشافي.

قام المستشار متلهفا من مقعده، كأن كارثة ألمت به، وطلـب منـه أن يـذهب بـه إلى العميـد، ليسأله عـن هـذا الشـأن، مـا سـر تلهفـه، وكيف أصابه الذعر والاضطراب بهـذا الشكل؟؟ استاء رشـدي مـن هـذا الوضـع، فالوقـت لزيـارة العميـد في البيـت غـير مناسـب، والأحرى أن ينتظر حتى الصباح ويستفهم عما يريـد، تسرب القلـق داخـل نفـس الـدكتور رشـدي، فالقضـاة والمستشـارون لا يصـدرون الحكـم إلا عـن تـروٍّ، ولكـن المستشـار دائمـا في عجلـة مـن أمـره، متسرع في إبرام رأيه، لا يدع الأمور تسير سيرها الطبيعي في اتجاه الريح دون تدخل منه، فتنقضي في أوقاتها دون إلحـاح عليهـا. أقـر العميد ما قاله رشدي.

رشدي يصنف كتابا عن أحد الأنبياء، وكتب مقدمتـه، ثـم عـرض الكتاب ومقدمته علـى صـديقه المستشـار، قـرأ المقدمـة فوقعـت في

نفسه موقعا حسنا، طالب صديقه أن تكون المقدمة باسمه هو، وألح على ذلك، قراءته في هذا المجال ليست متخصصة، ابتسم رشدي ولم يُرِدْ أن يحرج صديقه، قال زملاؤه من أهل سوهاج إن المقدمة التي كتبتها تعبر عن الكتاب تعبيرا صادقا متميزا، والكتاب جدير أن يطبع للمرة الثانية.

واتصل المستشار بصديقه رشدي يطلب منه أن يعيد طباعة الكتاب بمقدمته التي كتبها، ويضع المستشار اسمه عليها كأنه هو الذي كتبها، وتقسم هدايا النسخ مناصفة بين الاثنين.

المستشار مقتنع تماما أنه هو الذي كتب المقدمة، ويطلب المشاركة في نسخ الهدايا، استفحل الأمر ولم يعد مجرد صداقة، فقد ظهرت بوادر الاستغلال المقيت.

قال: إذن عليك أن تشارك بنصف تكاليف الطباعة، وهو يعلم أن هذا العرض سوف يقلقه ويحيره، أسقط في يده ولم يعاود الحديث عن الكتاب مرة أخرى.

ذات يوم اتصل به المستشار من شارع مصطفى النحاس، وأنه سينتظره أمام مطعم الشبراوي، ليذهب معه إلى معرض الكتاب، لم يكن يتوقع الذهاب في هذا الوقت للمعرض، استقل عربته، ولاح له المستشار منتظرا أمام الشبراوي، وصلت السيارة قريبا من

المعرض ثم توقفت تماما، يعمل بها المفتاح ولا تدور، نسي رشدي أن يملأها بنزينا.

قفز المستشار فجأة من السيارة، دون قول شيء، ولم يبال بتوقف السيارة، ولا بالحيرة التي داهمت رشدي، الذي أسف لهذا التصرف الغريب، سرى الندم في أوصاله، وحزن على الأيام التي قضاها في صحبة من لا يحفظ حق الصداقة.

كان ينتظر أن يساعده في إحضار بنزين للسيارة، فقد توقفت في منتصف الطريق، أمام قاعة المؤتمرات، لابد من سحبها، وهو في حاجة إلى من يعمل على دفعها بجوار الرصيف، فلا يتعطل المرور، ساعده المارة على ركن العربة.

استقل رشدي سيارة أجرة وأحضر بنزينا من أقرب محطة، ركب السيارة وسار في طريق المعرض قافلا إلى بيته، وجد المستشار يسير منفردا ليس بيده كتاب واحد، فقد أغلق المعرض أبوابه في الثامنة مساء.

وجد المستشار صديقه رشدي يسير بمحاذاته، أشار إليه أن يتوقف، رآه رشدي، تظاهر بأنه لم يره، فلم يتوقف بسيارته، ومضى بعيدا عنه، قافلا إلى منزله دون أن يلتقطه من الطريق.

زوزو العرجاء

كان عبده يسير بجوار منزله متجها إلى بائع الصحف، في نهر الطريق لمح شبحا يكاد يكون في الأربعين من عمره، يقف وحيدا، شعره يجمع بين الليل والنهار، وحيدا في مكان متسع تبرق فيه أشعة الشمس الواهنة، لا يتكلم مع أحد، ولا يكلمه أحد، يتحدث مع نفسه مسترسلا، يفيض في الكلام في همة ونشاط، يخاطب شخصا غير مرئي، يخاطب وهما في الحقيقة، ولكنه يلقي به إلى أعدائه الإسرائيليين، الذين غدروا بأسرته، يتناولهم بأقذع الشتائم، فإذا لم تشف غليله دعا عليهم بكل ما في جعبته من سلاطة اللسان، وبذيء القول، يتوجه في حديثه إلى السماء، رافعا كفيه، منغمسا في قضية بلده، التي احتلها الإسرائيليون الغادرون، ثم يدعو للفلسطينيين رافعا كفيه مرة أخرى بطول العمر، وإفناء العدو، يطلب من الله أن يعينهم على تدمير معتقلاتهم، التي أوصدت عليهم، يحطمونها دون أن يحول بينهم إسرائيلي واحد، يحررون أرضهم، أخوه يوسف يقف لهم بالمرصاد، ويطيح بهم..

الرائح والغادي يلاحظون فؤاد وهو على هذه الحال، لأول وهلة تراه وهو يتكلم مشوحا بكلتا يديه في الهواء، تحسب أن هذا الرجل قد فقد عقله، يداوم الكلام حتى ينفعل، فيصبح كلامه صاخبا، ثم يهدأ فيصير كالهمس. يتركه الناس وشأنه، يهزون أكتافهم بلا مبالاة، ويمضون في طريقهم كأن شيئا لم يسترع انتباههم، لا غرابة فيما رأوا، ليس من يراه يترحم لحاله، رأوا الكثير من أمثاله في طرق القاهرة، بعضهم يرصد عربات النقل العام.

وقف عبده في ميدان الفلكي ينتظر إحدى المواصلات، المكان يعج بالناس رجالا ونساء، رأى رجلا يفك سرواله وهو في مواجهة الناس، أخرج عضوه، امتد منه حبل طويل من البول، ارتطم البول بالأرض، رأى الناس هذا المنظر دون احتجاج أو اندهاش.

جيش من المعتوهين والمتسولين يعلنون عن حاجتهم، هذه تسأل الناس لنقل دم لزوجها المريض،

وهـذا معيـل يفتقـر أولاده الثلاثـة وأمهـم المريضـة إلى الإحسان، وهذا كفيف يمد يده لأنه أعمى رغم ما فيه من طول فاره، وصحة متينة، وامرأة منقبة توزع أوراقا على الراكبين طلبا للإحسان.

* * *

تعود الناس رؤية فؤاد في هذه الحالة المرضية، كأنه يناجي ربه ويستجير به ضد العدو الصهيوني، يراه الناس فيهزون أكتافهم بلا اهتمام، يديرون رؤوسهم، ثم يتجه كل منهم في طريق.

حال فؤاد الغريبة المرضية تستدر العطف، لا شك أنه أولى بالصدقة من هؤلاء المحترفين، الذين نصادفهم في شتى المواصلات، هو لا يستجدي أحدا، ولا يطلب شيئا، ليس محترفا كغيره من الشحاذين، الصدقة إليه يجزي الله عنها، إنه في أمس الحاجة إليها، ولكنه لا يطلبها.

فـؤاد استرعى انتباه عبده، أخرج من جيبه نقودا أعطاها له، قبل فؤاد النقود دون تردد، ودون كلمة شكر،

لم ينظر إلى عبده ولم يبادله الحديث، ظل واقفا لا يتحرك حتى غادر عبده المكان متجها في طريقه.

تكرر حال فؤاد من الوقوف عرض الطريق واقفا أو جالسا على حجر تحت أشعة الشمس الواهنة، كلما لمح فؤاد اتجه نحوه ومنحه جنيها، حتى اليوم الذي لا يراه فيه يود لو صادفه ليمنحه هذا الجنيه.

تكرر لقاء عبده وفؤاد، وتكرر ما يمنحه له، حتى اطمأن فؤاد إليه تماما وبدأ يجاذبه أطراف الحديث.

- هل معك مصاري؟ أريد مصاري لأشتري طعاما.

أنا في حاجة لرداء يدفئني في الشتاء، أنا أبغي حشيّة أرقد عليها، أريد ورق عنب لأحشوه أرزا، ومرة طلب لحما، بعدما أرسل إليه عبده لحما رفض قبوله، واستمرت هذه المطالبة من وقت لآخر دون حرج من فؤاد، أو ضيق من عبده.

* * *

ذات مـرة رآه عبـده يجـري نحـوه صـارخا في استغاثة، منتقلا من الجهة المقابلة إلى الرصيف الذي يسير عليه عبده، يتعقبه ثلاثة شبان، كان ذلك قبيل الغروب، استنجد بعبـده كما يستنجد الطفل بأبيه فيحتمي به، كي يدفع عنه الأذى.

- إنهم يسيرون خلفي يزعجونني ويضايقونني، ويضربونني، إنهم يتحرشون بي، استوقف عبده واحدا منهم، وفرّ الآخران.
- لماذا تتعقبونه أينما اتجه؟ تلقون على أسماعه كلماتكم البذيئة، إذا تكرر هذا الحال منكم فلن أترككم وشأنكم، ألم تدركوا أنه مريض فاقد الرشد؟ بدلا من العطف عليه ومعاملته برفق تصدر منكم مثل هذه المعاملة، لو رأيتكم تسيرون خلفه وتعملون على مضايقته سأعرف كيف أتصرف معكم.

جلس عبده في الشرفة التي تطل من بيته على الطريق، جلس مسترخيا على كرسيه، يتلقى نسمات الهواء

المنعش، لم يضئ الأنوار من حوله، أراد أن يعيش في جو رومانتيكي، يستمتع بهدأة الليل المرصع بالنجوم، اكتفى بالفانوس المضيء حول المنزل إضاءة خافتة، لمح من الشرفة شبحا يتحرك، يرفع يديه لأعلى ثم يهبط بهما لأسفل، يجري حوارا بينه وبين نفسه، يعلو الرصيف ويهبط منه في مرح، هكذا هو لا يحب أن يسير في نهر الطريق، يصعد الرصيف مقتحما السيارات المركونة بمحاذاة الطريق، يسير أمام البيوت يهبط من الرصيف ويسرع الخطى في الطريق، كعصفور يقفز على غصن شجرة ثم يهبط منه إلى غصن آخر، يتحدث بصوت عال يسمعه عبده وهو في الشرفة من الطابق الثالث، كأنه بائع في أحد الأسواق يعلن عن بضاعته، إنه فؤاد الطيب القلب، الذي لا يخالط أحدا من الناس خوفا من أذاهم، ينفرد بالحديث مع نفسه، "أبي قتل بالرصاص، ذهب يحضر لنا حلاوة المولد، طلبت منه أن يأتيني بحصان يمتطيه فارس لا يشق له غبار، أمتشق سيفي وأنازل به الأعداء، لم يحضر لي حصانا ولا فارسا، بدلا من ذلك جاءني وفي يده

عروس المولد، ملابسها من ورق أزرق، خدودها ورود، عيناها كحيلتان، ترف على شفتيها ابتسامة ساحرة، لم أرد عروسا، أردت حصانا يركبه فارس، ويلوح بسيفه، حصانا أنازل به العدو، لم يأت الحصان، أمسك العروس وألقى بها على الأرض فتهشمت، أمي ربتت على كتفي، لا تحزن يا بني، لا تغضب يا فؤاد، أبوك سيحضر لك الحصان الذي يعلوه الفارس.

أين أخوه يوسف، الشاب القوي ذو الأذرع المفتولة؟ لم يستطع مقاومة الأعداء، تخاذل أمامهم، ضعف معهم، قادوه مكبلا بالحديد، ترسف يديه في الأغلال، ألقوه في السيارة، غابت السيارة، وطوت تحتها الأرض، تصاعد التراب وغطى الهواء، تطاير الغبار أمام الديار، لا أعرف أين ذهب يوسف، أين أودعوه؟ لا أحد يعرف، حتى الجوار والأصدقاء.

كنا مجموعة من الصبيان نلعب سويا، نردد ما نسمعه من إخواننا وآبائنا.

- يمسكون الفلسطيني المدافع عن بيته وأرضه، يلقون به في مبنى الخرسانة المسلحة، وسط الصحراء اللافحة، في حفرة في باطن الأرض، يضربونه ويسومونه سوء العذاب، يكاد الرجل يفقد حياته من قسوة العذاب، يعاودون إلهاب أجسادهم، بسيور جلدية سميكة متينة، تترك علامات حمراء في أبدانهم، يصرخون من الألم المريع، لا مجيب لاستغاثتهم، لا يتركون الفلسطيني حتى تكاد تزهق روحه، يظل بين الحياة والموت متأرجحا، يصبح خرقة بالية مهلهلة، لا يذوقون للنوم طعما، يعمل الحراس على إلهاب أجسادهم طوال الوقت بوسيلة ما، وسيلة منهكة، مفزعة، قاهرة، لا يستطيعون لها دفعا.

عرف فؤاد من جيرانه الأطفال، ما يجري داخل السجون، وما يعانيه الشبان الفلسطينيون من رقدتهم على بلاط السجن الملتهب في الصيف، البارد في الشتاء، يوسف أخوه يعذب كغيره من المعتقلين، وأمه وأبوه قتلا برصاص العدو أمام عينيه، مكانهما أصبح شاغرا، وأصبح

هو في الدنيا وحيدا، لا أحد يعني بأمره، ليس له في الدنيا سوى خالته شقيقة أمه، ما زالت تتنفس بين جدران بيتها.

أخذت أم بدوي ابن أختها فؤاد ليعيش في كنفها، لم يعد شخصا مألوفا، كان يهذي، ويردد كلاما غير مفهوم لأحد، استفحلت حالته، وتطورت من شرود إلى توهان إلى اضطراب في السلوك، يتحدث عن أشياء يراها هو ولا يكون لها وجود إطلاقا.

استمرت حالة فؤاد تتفاقم وتبدو في كل تصرفاته، خالته تتحسر عليه، تتنهد، تضرب كفا بكف، ليست هذه حال فؤاد وحده، كثير من أطفال الفلسطينيين، يمرون بهذه الحالة، هزتهم الفجيعة في أسرهم.

الموقف الذي شاهده فؤاد عن أسرته لا يغادر رأسه، متشبث به، يستولي على كيانه، حاله أصبحت من الكآبة بحيث ينفطر لها القلب، فلا هي تتخلى عنه، ولا هو يفلت منها، أمره لا يمكن السكوت عليه، يجب عرضه على أحد الأطباء، يشخص حالته ويكتب له العلاج.

كان فؤاد يجلس على حجر بين الأشجار، بين البيارات، تحت الشمس الساخنة، يفكر كيف نتخلص من الإسرائيليين الذين قتلوا آباءنا، ودمروا بيوتنا، واعتقلوا شبابنا، تركوه وحيدا، للعراء والرياح العاتية، استمر على هذا التفكير المختلط بعضه ببعض، يجتره من وقت لآخر، لم يجد منأى من التخلص منه، زاد اضطرابه واشتعلت الهواجس في رأسه، يعود مرة أخرى، إنه يحمل بندقية يحصد بها رؤوس الأعداء، دون أن يخدش طرف منه، إنه يمتشق سلاحا بتارا، يضرب به عنق العدو، فتتساقط على الأرض تشخب دما، ويعود إلى داره فارسا، محاربا، مجللا بهالات النصر، الأطفال حوله يهللون لبطولته، لدحره العدو.

ظلت هذه الأفكار تملأ رأسه وتملك حسه، إنها ليست محض خيال، فهو وأصدقاؤه من الأطفال قادرون أن يحققوه، ويبيدوا الأعداء.

فـؤاد يسـتولي عليـه خيـال مـريض، سـاءت حالتـه، واستوجب عرضه على طبيب يشفيه مـن مرضه الذي صار مزمنا.

عائلات كثيرة هاجرت من فلسطين إلى البلاد العربية، ودول الخليج، والشام، ومصر، هربا مـن القتال الدائر، وبحثا عن الأمان، وحفاظا على الأرواح.

اصطحب فـؤاد خالتـه أم بـدوي إلى القاهرة، امـرأة بدينـة بيضـاء، علـى وجههـا مسـحة مـن الألم والحـزن والإرهـاق. فـؤاد يسير مـع خالتـه ممسـكا بطـرف ثوبهـا الفضفاض، حتى لا يغيب عنهـا، نظر إلى شوارع القاهرة المتسعة الزاخرة بالناس، الجو خانق، والعرق يتفصد على الجباه، أفيال من العربات تلهث في الطريق في صفوف مهوشـة، السيارات المزعجـة تـنفخ أبواقهـا في تواصـل، ينبعث منها دخان كثيف، إشارة المرور أعلنت عن توقف السيارات، السائقون يتبادلون الشتائم المقذعة، كأنها وجبة غذاء عليهم الانتهاء منها، "تحرك يا أسطى، وسع الطريق،

يلعن أبو اللي جبتك، كان يوما أغبر اللي تولدت فيه، اتعلموا السواقة ياغجر" إنهم يتبادلون هذه القذائف الصوتية الملتهبة، وينتهي كل شيء، وكأن شيئا لم يحدث، ويعود السائق إلى عجلة القيادة، عالم غريب، لم يعرفه فؤاد، ولم يره من قبل، إنها حرب بين أطراف الشعب الواحد، أما الحرب عندنا في فلسطين فهي حرب بين شعبين، الفلسطيني والإسرائيلي، ولا تنقضي المعركة إلا بعد جريان الدماء، وإزهاق الأرواح، وتدمير الديار، وسحب المعتقلين إلى السجون.

أجرى الطبيب الكشف على فؤاد، قرر أنه يعاني أزمة عصبية حادة، وحالته في تأخر، تستدعي أن يودع في مصحة عقلية، حتى يتم له الشفاء، فلا تجزعي، واطمئني، سيكون في أيد أمينة، تسهر على راحته.

سحبته خالته أم بدوي لتودعه في المستشفى التي أشار إليها الطبيب، مكث تحت العلاج فترة طويلة، تداوم خالته على الزيارة كل يوم جمعة، تستمر معه من الحادية

عشرة إلى الخامسة بعد الظهر، تلبي حاجاته، حتى تطمئن عليه، ثم تغادر المكان.

استمر فؤاد تحت العلاج، جلسات كهربائية ينخلع لها القلب، ويصبح الجسد جثة هامدة، حتى تعود إلى حالتها الأولى.

مجموعة من زملائه في العنبر من المرضى تتفاوت أحوالهم، بعضهم فقد صوابه كلية، لا يفكر في شيء على الإطلاق، يلزم الصمت دائما، لا يجيب، ينفذ كل ما يأمر به الممرض، غاية في الاستسلام والطاعة، وبعضهم كان مشاكسا يختلق المشاجرات مع المرضى والممرضين، لا ينفذ أمرا ولا يستجيب لشيء.

ذات مرة طوق المشاكس واحد من الممرضين وضمه بين ذراعيه القويتين، لا يستطيع منها تخلصا، وصفعه الآخر على وجهه بشدة، استدار على قفاه وأوسعه ضربا، لم يكتف الممرض بذلك، انهال عليه بالعصا الغليظة، ورفعها إلى أعلى لتشق الهواء، ثم تهبط على جسمه العليل المتهالك،

يصرخ المريض بأعلى صوته مستنجدا من قسوة الضرب وشدة الألم، لا أحد يجسر على حمايته، يستمر في ضربه بهذه الغلظة والوحشية، ركلا بالقدم، ضربا بالعصا، لكما باليد، صفعا على القفا، والمريض في نشيج مستمر، يولول بصوت مفجع، تسمعه كل العنابر المجاورة، وغرفة الأطباء، ومكتب مدير المصحة، لا أحد يصنع شيئا، أو يهمّ ببادرة، دعوا الممرض يفعل ما يحلو له، النزلاء متعبون، مرهِقون، تصدر منهم أفعال غريبة غبية، لا يخيفهم شيء كخوفهم من جلسات الكهرباء، هي الخوف الحقيقي الذي يسري في أوصالهم، ويتمكن من مشاعرهم العنيفة، دعهم يذوقون ألوانا أخرى من العقاب، علها تعمل على تقويمهم.

النزلاء في العنبر يشاهدون وينكمشون وينزوون، لا أحد يقوى على فتح فمه، لا يستطيع أن يعترض أو يتذمر حتى لا يصيبه مثل ما أصاب زميله.

كانت هذه الأحداث المريعة تتكرر كل يوم تقريبا، أثناء النهار وأوقات الليل.

في يوم الجمعة يوم الزيارات المحمّلة بالأطعمة وما تشتهيه النفس، يستولي عليها الممرضون، يخفونها عن المرضى، ويستأثرون وحدهم بالأطعمة التي يحضرها أقرباء المرضى، بعضهم يتقاسمها مع المرضى، وبعضهم يستحوذ عليها، لا يستطيع مريض أن يشق عصا الطاعة، أو يجأر بالشكوى، والويل لمن يجرؤ ويقدم على فعل شيء من هذا، التلويح بالجلسات الكهربائية الصاعقة، والضرب الموجع الأليم.

قضى فؤاد زمنا طويلا في مستشفى الأمراض العصبية، قضاها بين حجراتها الصماء، يرقد مع زملائه الذين يعانون مثله من مشكلات عصبية، يهجعون على أسرتهم بالليل، ويستيقظون مع الفجر، يهيئون أنفسهم ليوم غريب ينشب في ظهر الغيب، لا يعرفون إن كان هذا اليوم فيه من الأفراح بقدر ما يملؤه من الأحزان، يوم لا يدرون كيف يكون، وكيف يتعاملون فيه مع الممرضين وإدارة المصحة، ما يخفف عنهم أن الأيام قد تشابه لونها، وأصبحت تطابق بعضها بعضا.

* * *

كان اليوم يوم جمعة، وكانت خالته أم بدوي تفد إليه، لا تتأخر عن زيارته أبدا، تقضي معه وقتا طيبا، تطمئن على أحواله، ثم تعود قافلة إلى منزلها محملة بالهموم والأحزان.

المرض يرافق فؤاد، وخالته تزداد سوءا، كان يقول كلاما أجوف لا يعني شيئا، وخالته لا تفهم عنه ما يريد، أما الآن فقد تدهورت صحته، وتقلص ذهنه، يرى خالته دون أن يتعرف عليها، تراه ساهم الوجه، مشتت المشاعر، إذا تبسّطت معه في أمر ما لا يعرف فيم تتحدث، ولا ماذا تريد، أصبح الحبل منقطعا بين الاثنين، تمسك خالته بطرف الحبل، وتمده إليه فلا يبادلها إحساسا بإحساس ويمسك بالطرف الآخر، كانا فردين غريبين لا يعرف أحدهما الآخر، فؤاد لا يعرف خالته شكلا أو قرابة، وهي لا تعرفه بسلوكه، وتنكر أفعاله تماما.

بعد فترة انقطعت زيارة خالته للمصحة، ولم يعد يراها القائمون على سيرها.

هل يئست من شفاء فؤاد من علته وتركته لحاله؟

هل مرضت ولم تقو على زيارة ابن أختها؟

هل عادت إلى بلدها، ونزحت إليها بعد انقطاع طويل؟

هل ألمّ بها حادث ولم يستدل عليها؟ أم توفيت دون أن يعلم بذلك أحد؟

على كل حال انقطعت عن زيارتها المنتظمة تماما لفؤاد، والمصحة لا تعرف عنها شيئا، العنوان الذي كانت تقطن فيه وتركته للمستشفى غادرته، والجيران لا تعرف إلى أي مكان توجهت.

لم يسأل عن فؤاد أحد، وتركته خالته دون أن تعلم المصحة أين هي؟ أصبح وجوده في المستشفى لا مبرر له، فهو لم يتماثل للشفاء، وليس ثمة أمل في علاجه، فحاله ميؤس منها، ووجوده طليقا في الشوارع يكون موضع تساؤل من الناس، كيف أطلقوه وهو موشك على الجنون؟ كيف يتعامل مع الناس ويندمج بينهم؟ لا شك أنه لن ينعم بحياته الطليقة إذا لفظته المصحة، فقد يقع في براثن

أناس لا خلاق لهم، إن بعض المصريين يحبون أن يلهوا مع هؤلاء الضعفاء، يتلعبوا بهم، ويتهكموا عليهم، ويؤذوهم في أبدانهم، إن خروجه من المصحة أكثر فداحة من الإبقاء عليه داخلها، ليس أمامنا من سبيل آخر، ليس علينا أن نتحمله إلى الأبد، ولا أن نحمل وزره ، إذن فلنتركه يغادر المصحة، دون أن يتعرض لإيقافه أحد، أو يمنعه من الخروج، ندعه يرحل في سلام، ويغمض الحراس أعينهم عنه، نتركه يهيم في شوارع القاهرة، ويختار المكان المناسب له، نقول إنه غافل حراس المصحة، ولاذ بالفرار، ولم نعثر له على أثر.

* * *

سار فؤاد في شارع يهيم على وجهه، شارع يعج بالعربات المختلفة الأحجام، تنهب الأرض نهبا، تحت الكوبري المعلق في السقف فوقه، سار مشدوها بما تقع عليه عيناه لأول مرة، واصل سيره، أصبح بجوار مسجد المصطفى بالقرب من الاستاد الرياضي، توقف لا يدري أين هو، وكيف يتجه، وإلى أين يذهب؟

أحد الملتحين أنهى صلاته بالمسجد، خرج يتمتم ببعض الأوراد في سره، تتحرك شفتاه فقط، استوقفه فؤاد وسأله:

-أين نحن الآن؟ في أي طريق؟

ألقى الرجل عليه نظرة خاطفة، وجده رث الثياب، تعلو وجهه غبرة من تراب، يستبد به الضيق، وتبدو على وجهه علامات الحيرة، سأله الرجل:

- أي الجهات تود الوصول إليها، أراك لست من القاهرة؟
- أنا فلسطيني جئت إلى القاهرة مع خالتي من زمن طويل، ومسكني قريب من هنا، لم تعاود خالتي زيارتها لي، خرجت أبحث عنها، ربما أجدها في الطريق، لكني لا أعرف مكانها، هل يمكنك أن تدلني عليه؟

شك الرجل الملتحي في أمر هذا الشاب، هل هو عاقل أم مختل؟ إنه لا يخبره بشيء يمكنه الإجابة عليه.

- قلت إنك من فلسطين، سأوصلك إلى مكان أمين.

حدث نفسه: ليس من مكان آمن أكثر من إدارة الحاكم لقطاع غزة، إنها بالقرب من هنا، أسلمه هناك وهم يفهمون عنه، ويتصرفون معه، وأكون قد نلت ثوابا عنه.

اصطحب فؤاد معه واستقل سيارة أجرة، توقف بها أمام إدارة حاكم قطاع غزة، قرأ الرجل على المبنى لافتة تشير أن هذا المكان هو مقر إدارة الحاكم، تحدث مع رجل الأمن، أشار له بأصبعه أن يطرق هذا الباب، دخل وتعرف عليه، وأخبره بقصة فؤاد، رأى من الأصلح أن يأتي به ويسلمه لإدارة القطاع.

تأكد الحاكم أن فؤاد فلسطيني من غزة، وفد القاهرة، وأودعته خالته إحدى المصحات، ثم تلقفته الشوارع العريضة، ولم يدر إلى أي جهة يسير.

خرج الملتحي من مكتب الحاكم العام، بعد أن أودع الأمانة إلى أهلها، وألقى عن ظهره هذا العبء الثقيل، تنفس الصعداء، وسعد لأنه أدى مهمة جليلة إلى رجل يراه مختلا تائها بين الشوارع.

* * *

أمر الحاكم بوضع فؤاد في غرفة من الغرف المتناثرة في المبنى، ألقوه في حجرة غير ملائمة، ضيقة لا تزيد عن مترين في متر واحد، فيها نافذة إلا أنها سدت بركام من المخلفات، حفرة أقرب إلى السجن الذي يوضع فيه المعتقلون، كانت الغرفة مهملة تستعمل كمخزن تلقى فيه كل ما يستغنى عنه، هذه الغرفة أطلع فؤاد صديقه عبده عليها بعد أن توثقت الصلة بينهما.

في الحجرة الضيقة وضع سرير مهشم، عليه حشيّة متهرئة، وضعت على ألواح يتساند بعضها على بعض، الألواح تئن تحت ضغط الحشية بمجرد وضع الجسم عليها، الحشية ليست لها لون، قطعة من الإسفنج، يضع رأسه عليها عند النوم، لا تتعدى ربع المتر، ليس على السرير شرشف، أو بطانية تدفئه من برد الشتاء اللعين، بجوار السرير مباشرة وعاء كبير "حلة" من الألومنيوم، بلا غطاء، يستعمله لغسيل ملابسه، هذا الوعاء الكبير يوضع على كرتونة تحل محل الطاولة، في سقف الغرفة يتعلق

كشاف يغطي حيزا كبيرا من السقف، من الطبعي ألا يكـون في الغرفة تلفاز، يشاهد صـوره، أو مـذياع، يتسلى بسماعه، ليس في الغرفة صنبور يشرب منه، أو ماء جار يستحم فيه، عليه أن يبحث عن مكان آخر في الإدارة أو غيرها، قريب أو بعيد، عليه أن يتصرف ليقضي شئونه اليومية، وما يغنيه عن قضاء الحاجة أو الاستحمام، رائحة نفاذة كريهة تنبعث في أنحاء الحجرة، وتميع لها النفس.

* * *